

رسالة

**الدعوة إلى الجهاد
في القرآن والسنة**

الدعوة إلى الجهاد في القرآن والسنة

الحمد لله الذي شرع الجهاد بالقلب واليد واللسان ، وجعل جزاء من قام به الغرف العالية في الجنان . . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، المبعوث رحمة للعالمين ، والمأمور بقتال المشركين ، جاهد في الله حق جهاده . . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به ، وعزروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه . . والذين هاجروا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فكانوا هم السادة الغالبين . .

أما بعد :

فمعلوم ما كان عليه رسول الله ﷺ في الجهاد مع المشركين منذ بعثه الله عز وجل ، وأكرمه بالرسالة إلى أن توفاه الله واختار له ما عنده ، فكان يغشى الناس في مجالسهم في أيام المواسم وغيرها ، ويأتيهم في أسواقهم ، فيتلوا عليهم القرآن ، ويدعوهم إلى الله - عز وجل - .

ويقول : «من يؤويني ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة» ، فلم يجد أحداً ينصره ولا يؤويه . .

واستمر يدعو إلى الله ، ويصبر على الأذى ، ويصفح عن الجاهل ، مدة ثلاث عشرة سنة لإقامة حجة الله - تعالى - عليهم ، ووفاء بوعدته الذي امتن عليهم به في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . . فاستمر الناس في الطغيان ، وما استدلوا بواضح البرهان ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه ليفتنوهم عن دينهم ، وحتى نفوهم عن بلادهم ، فمنهم من فر إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج إلى المدينة ،

ومنهم من صبر على الأذى من : حبس ، وجوع ، وعطش ، وضرب . .
حتى إن الواحد منهم ما كان يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرب . .
لقد جعلوا في عنق بلال حبلاً ودفَعوا به إلى الصبيان ، يلعبون به ،
ويطوفون به شعاب مكة . . وما لاقاه آل ياسر من العذاب يفوق ما يحتمله
البشر . .

وآذت قريش رسول الله ﷺ ، وحاصروه في الشعب ، وحاول عقبة بن
أبي معيط أن يخنقه مرة . . وما زال يشد ثوبه عليه حتى جحظت عيناه ،
وأسرع أبو بكر فخلصه ، وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله
!؟ .

وحاول أبو جهل قتل الرسول وهو بالمسجد يصلي ، فحمل حجراً ضخماً
ليلقيه على رأسه وهو ساجد ، ولما هم بإلقائه رجع مذعوراً . . وقال :
اعترضني دون محمد فحل هائل من الإبل هم أن يأكلني . .

ولما أراد الله إظهار دينه ، وإنجاز وعده ، ونصر نبيه ، أمره الله - تعالى -
بالحجرة إلى المدينة ، فأسفر صلوات الله وسلامه عليه بها ، وأيده الله
بنصره وبعباده المؤمنين فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود
والأحمر ، وباعوا نفوسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء
والأزواج . .

وكان أولى بهم من أنفسهم ، فرمتهم العرب واليهود عن قوس واحد ،
وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب . .
أذن الله لهم حينئذ في القتال ، ولم يفرضه عليهم ، فقال :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ
أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ .

أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن الله يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته ، كما في قوله تعالى :

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ ..

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، فقال :
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ .

ثم أنزل الله في سورة براءة الأمر بنبذ العهود ، وأمرهم بقتال المشركين كافة ، وأمر بقتال أهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ..

ولم يبح لهم ترك قتالهم وإن سالوهم وهادنوهم هدنة مطلقة مع إمكان جهادهم ..

فكان القتال ممنوعاً ثم مآذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ثم مأموراً به لجميع المشركين كما في سورة البقرة ، وآل عمران ، وبراءة .. وغيرها من السور .

أوجب الله على المسلمين القتال ، وعظم أمر الجهاد في عامة السور المدنية ، كما في قوله تعالى :

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ..

وقال : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ

خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ ..

فالقِتال : وإن كان مكروهاً للنفس بطبيعتها ، لما فيه من التعرض للقتل ، والأسر ، وتشويه البدن ، وإتلاف المال ، وتدمير المصانع ، وتخريب البلاد ، وإشاعة الرعب والفرع في النفوس ، والإخراج من الأوطان ..
فقد رتب الله عليه من الأجر والفوز ما لا يخطر على قلب بشر ..
قال عكرمة : إنهم كرهوه ثم أحبوه .. وقالوا : سمعنا وأطعنا ..
وهذا لأن امثال الأمر يتضمن مشقة ، لكن إذا عرف الثواب هان في جنبه مقاساة المشقات ..

وقد تظاهرت آيات الكتاب ، وتواترت نصوص السنة على الترغيب في الجهاد والحض عليه ، ومدح أهله ، والإخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات .. لأنهم جند الله يقيم بهم دينه ، ويدفع بهم بأس أعدائه ، ويحفظ بهم الإسلام ، ويحمي حوزة الدين ..

وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله .. ولتكون كلمة الله هي العليا ، وجعلهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها ، وإن باتوا في ديارهم ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم .. فإنهم كانوا هم السبب فيه ..

والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر .. فكان الداعي إلى الهدى والداعي إلى الضلال لكل مهما بتسبيه مثل أجر من اتبعه ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ .

فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرباحة التي دل عليها رب العالمين

العليم الحكيم فقال : ﴿تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ .

فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها .. فقال : ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم .. فقال : ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ .
ومع المغفرة يدخلكم : ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

فكأنها قالت : هذا في الآخرة ، فما لنا في الدنيا ؟

فقال : ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ..

فله ما أحلى هذه الألفاظ ! وما ألصقها بالقلوب ! .. وما أعظمها جذباً لها وتسييراً إلى ربها ! وما أطف موقعها من قلب محب ! .. وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها ! .. فسأل الله من فضله .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ..

فأخبره - سبحانه وتعالى - أنه لا يستوي عنده عمار المسجد الحرام ، وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة . هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن . وأهل سقاية الحاج لا يستوون هم وأهل الجهاد في

سبيل الله ، وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده ، وأنهم هم الفائزون ، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات . . فنفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عماره ، بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ . .

فهؤلاء هم عمار المساجد . . ومع هذا فأهل الجهاد (أرفع درجة) عند الله منهم . .

وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنِيَّ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ . .

فنفى سبحانه وتعالى التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة ، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات . .

قال ابن زيد : الدرجات التي فضل الله بها المجاهد على القاعد : سبع ، وهي التي ذكرها الله - تعالى - في قوله : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . .

فهذه خمس . . ثم قال : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ . .

فهاتان اثنتان ..

قال ابن القيم - بعد ذكره لكلام ابن زيد - : والصحيح : أن الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة ، الذي رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : «من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها .. قالوا : يا رسول الله : أفلا نخبر الناس بذلك ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين كما بين السماء والأرض .. فإذا سألتم الله فاسألوه (الفردوس) ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أهار الجنة ..» .

وقال ابن القيم في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبِعْتِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ..

فجعل سبحانه هاهنا الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم بحيث إذا بذلوا فيه استحقوا الثمن ، وعقد معهم هذا العقد ، وأكده بأنواع من التأكيد .

أحدها : إخباره - سبحانه وتعالى - بصيغة الخبر المؤكد بأداة (إن) .

الثاني : الإخبار بذلك بصيغة الماضي الذي قد وقع وثبت واستقر .

الثالث : إضافة هذا العقد إلى نفسه - سبحانه - وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع .

الرابع : أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعداً لا يخلفه ولا يتركه .

الخامس : أنه أتى بصيغة على التي للوجوب إعلماً لعباده بأن ذلك حق عليه أحقه هو على نفسه ..

السادس : أنه أكد ذلك بكونه حقاً عليه ..

السابع : أنه أخبر عن محل هذا الوعد ، وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي (التوراة والإنجيل والقرآن) ..

الثامن : إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار ، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه ..

التاسع : أنه - سبحانه وتعالى - أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ، ويبشر به بعضهم بعضاً بشارة من قد تم له العقد ولزم بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه ..

العاشر : أنه أخبرهم إخباراً مؤكداً بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم ، والبيع هاهنا بمعنى البيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة .
وقوله : ﴿بايعتم به﴾ ، أي عاوضتم وثامتم به ، ثم ذكر - سبحانه - أهل هذا العقد الذي وقع العقد وتم لهم دون غيرهم وهم التائبون مما يكره ، العابدون له بما يحب ، الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون ، السائحون (وفسرت السياحة) بالصيام ، (وفسرت) : بالسفر في طلب العلم .. (وفسرت) بالجهاد .

وأفهمت الآية خطر النفس الإنسانية وشرفها وعظم مقدارها .. فإن السلعة إذا خفي عليك قدرها ، فانظر إلى المشتري لها ، من هو ؟ .. وانظر إلى الثمن المبذول فيها ، ما هو ؟ .. وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع ، فالسلعة النفس .. والله - سبحانه - المشتري لها ، والثمن لها جنات النعيم .. والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم

عليه وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه .

وناهيك بهذا الفضل .. من شرف وعلو منزلة .. إلى غير ذلك مما أوضحه الله في القرآن من بيان أجر المجاهدين وتعظيم شأنهم ، وتحريك العواطف ، وطلب التضحية في سبيل الدعوة .. وبعث القوة والشجاعة في النفوس ، وحثهم على الإقدام والثبات .. وأن الله ناصرهم ومقدمهم بالملائكة : ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران : ١٢٤ - ١٢٦].

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيَمْحُصِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩ - ١٤٢].

وأخبر عما يلقاه من يستشهد في سبيل الله من الحياة، وأنهم عند ربهم يرزقهم ما يشاءون ، وتعلو وجوههم البشارة :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ..

وقال : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾
[النساء: ٧٦].

وقال : ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ .

وقال : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الآيات بعدها) .

فانظر - يا أخي - كيف يستثير الهمم لإعلاء كلمة الله ، ولحماية الضعفاء ، وتخليص المظلومين . .

وانظر كيف يقرن القتال بالصلاة والصوم . . ويبين أنه مثلهما مكتوب على المؤمنين . .

وكيف يشجع الخائفين أكبر تشجيع على خوض المعامع ، ومقابلة الموت بصدر رحب ، وجنان جريء ، مبيناً لهم أن الموت سيدركهم لا محالة ، وأنهم إن ماتوا مجاهدين فسيعوضون عن الحياة الدنيا أعظم عوض ولا يظلمون فتيلًا . .

وهذا باب واسع لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه ، ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان ، وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة ومن صلاة التطوع كما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو ظاهر عند الاعتبار ، فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ، ومشمول على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة ، فإنه مشتمل من محبة الله - تعالى - والإخلاص له ، والتوكل عليه ، وتسليم النفس والمال له ،

والصبر والزهد ، وذكر الله ، وسائر أنواع الأعمال ما لا يشتمل عليه عمل آخر . .

ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «والذي نفسي بيده لولا أن رجلاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله .. والذي نفسي بيده لو ددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ، ثم أقتل ثم أحيأ ، ثم أقتل ثم أحيأ ، ثم أقتل» . .

ورغب إليه - صلوات الله وسلامه عليه - بسيرته وثباته ، وشجاعته ، وصبره ، وأخبر ما للمجاهدين في سبيل الله من الأجر والثواب العاجل والآجل ، وما يدفع الله به من أصناف الشرور ، وما يحصل به من العز والتمكين والرفعة ، وجعله ذروة سنام الإسلام .

وقال : «إن في الجنة لمائة درجة ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله» . . [متفق عليه] .

وقال : «من أغبرت قدماء في سبيل الله حرمه الله على النار» [أخرجه البخاري] .

ولما في الصحيحين : أن رجلاً قال : يا رسول الله : أخبرني بشيء يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال : «لا تستطيع» . . قال أخبرني به ؟ قال : «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تفطر ، وتقوم لا تفتر» ، قال لا . قال : «فذلك الذي يعدل الجهاد» .

كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه : «أن أرواح الشهداء في جوف طير خضر تسبوا من الجنة حيث تشاء ، وأن الشهيد يغفر له جميع ذنوبه وخطاياها ، وأنه يشفع في سبعين من أهل بيته ، وأنه آمن يوم القيامة من الفرع

الأكبر ، وأنه لا يجد كرب الموت ، ولا هول المحشر ، وأنه لا يحس ألم القتل إلا كمس القرصة وكم للموت على الفراش من سكرة وغصة ، وأن القائم النائم في الجهاد أفضل من الصائم القائم فيما سواه ، ومن حرس في سبيل الله لا تبصر النار عيناه ، وأن رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» .

إذا عرف ذلك فقد عاتب الله المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، المتخلفين إلى نعيم الأرض المتقاعدين عن المبادرة إلى الخروج : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُمُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ .

كما ذم التاركين له ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب ، وتوعد المتخلفين القاعدين بأفظع العقوبات ، ورماهم بأبشع النعوت والصفات ، ووبخهم على الجبن والقعود ، ونعى عليهم الضعف والتخلف بقوله : ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الآيات بعدها) .

ولست تجد نظاماً قديماً أو حديثاً دينياً أو مدنياً عنى بشأن (الجهاد والجندي) ، واستنفار الأمة وحشدها كلها صفاً واحداً للجهاد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا . كما تجد ذلك في دين الإسلام وتعاليمه .

فقد فصل الكتاب والسنة كل ما يتصل به تفصيلاً عجيباً ، ووزع أعماله المختلفة ومسئوليته الكثيرة على جهاتها المختصة توزيعاً دقيقاً يفوق كل التنظيمات الحديثة والدراسات العسكرية .. بل ما هي إلا قطرة منه ..

وآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ فيأضة بكل هذه المعاني السامية ، داعية بأفصح عبارة وأوضح أسلوب .. فأمر المسلمين أن يأخذوا حذرهم

من أعداء الله ، وأن يعدو لهم ما استطاعوا من قوة . . لأن ذلك أول قواعد القتال وأعظمها شأنًا . . وأن الإعداد بجميع أنواعه وأقسامه المنطوية تحت كلمة قوة : أي برية وبحرية وجوية ، وأن الاهتمام بالقوات الثابتة والمرابطة : كالاتمام بالقوات المتحركة والاهتمام بالجيش في أيام السلم كالاتمام به في أيام الحرب . . وأن أساس الروح العسكرية كما يقولون أمران : الطاعة ، والنظام . .

وقد جمع الله هذا الأساس في آيتين من كتابه . .

فأما (الطاعة) ففي قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ .

وأما (النظام) ففي سورة الصف في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ . .

كما حث الجيوش الإسلامية على المبايعة على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره . .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ .

ومدح الصادقين بالعهد الموفين بالوعد بقوله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ . .

وأمر بالثبات عند اللقاء وذكر الله عند الفرع : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وشجع المجاهدين في سبيله على الإقدام الحازم والشجاعة الصادقة من

أول اللقاء إلى آخره : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا
 أَتَخْتَمُوهُم فَرُدُّوا الرِّقَابَ وَإِنَّا لَمَّا بَعْدُ وَإِنَّا لَمَّا بَعْدُ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾
 ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ
 وَتَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا
 وَهِنُوا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
 الصَّابِرِينَ﴾ ..

كما أمر باستصحاب الطمأنينة ، وسكون الجوارح ، وطرده الأوهام ،
 والتخلص من الوهن والحزن : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) .

وأخبر بأن الله قد تكفل بنصر من ينصر دينه ، وأنه لا عبرة بالعدد ولا
 بالعدة ، وإنما هو الإيمان الصادق بأن النصر من عند الله : ﴿إِن يَنْصُرْكُمْ
 اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
 الصَّابِرِينَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .
 ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)
 وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ..

كما أشار القرآن إلى الحقيقة المعروفة وهي : — أن الحرب دواليك — يوم
 لك ويوم عليك : ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
 نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ .

وجعل المشاورة من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ولا سيما في الأمور
 الهامة : كالجهاد ، ومعاملة الأعداء ، ومدح عبادة المؤمنين على هذه الصفة
 بقوله : ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ .

ومع كمال عقل الرسول ﷺ وتأييده بالوحي ، فقد أمره الله بقوله :

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ، ولتقتدي به أمته من بعده . .

كما حذر القرآن عن ارتكاب (المعاصي الباطنية والظاهرة) صغيرها ، وكبيرها . . وأخبر أن نصر الله لا يتنزل على العاصين : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ . .

ونهى عن التنازع مطلقاً على أي أمر في القتال ، وأخبر أن النزاع سبب للفشل وذهاب الريح : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .

وحذر من الفرار من العدو حين القتال ، وأنه كبيرة عظيمة ، وتوعد الجبناء المخذولين بأنكي العقوبات : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأُدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئس المصير﴾ .

ونهى عن غلول الغنائم ، وحذر المسلمين منه غاية التحذير . . وأنه يأتي بما غل حاملاً له على ظهره ورقبته، معذباً بحمله وثقله ، مرعوباً بصوته ، موبخاً بخيائته على رؤوس الأشهاد : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يُغْلَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

كما حذر عن القتال للرياء ، أو السمعة ، أو الشرف ، أو الحمية ، أو النعرات القومية والشعارات المزيفة . وكان الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - : إذا أمر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه (في خاصته) : بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً» .

وكان يقول للصحابة إذا أرادوا الغزو : «انطلقوا باسم الله ، وبالله، وعلى ملة رسول الله . لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة ، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم ، وأصلحوا ، وأحسنوا ، فإن الله يحب المحسنين» .

لذلك أبلى الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بلاء حسناً في نصره هذا الدين والدعوة إليه ، فأمدهم الله بالنصر وأنزل عليهم السكينة ، وأيدهم بالملائكة وألف بين قلوبهم وقذف في قلوب أعدائهم الرعب . . فقاتلوا في سبيل الله عن عقيدة وإخلاص ونصرة لدين الله حتى يظهره على الدين كله ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور . . ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . . وعرفوا أن الله قد ضمن لهم النصر ، ووعدهم بالفتح ، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله ، واستهانوا بالقلة والكثرة ، واستخفوا بالمخاوف والأخطار . . وذكروا قول الله تعالى : ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ .

وأنهم جند الله وأنهم يقاتلون في سبيل الله ، وأن الله ناصرهم ومعينهم وخاذل لأعدائهم . . لأنهم يقاتلون في سبيل الشيطان . .

هذا (عمر بن الخطاب) استشار أصحابه في مسيره إلى (العراق) ، بوقعة (نهاوند) قال له علي بن أبي طالب : يا أمير المؤمنين : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، هو دينه الذي أظهره ، وجنده الذي أعزه وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده . .

وهذا (خالد بن الوليد) لما أقبل من العراق قال رجل من نصارى العرب لخالد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فقال خالد : ويلك ؟ أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر براء من توجعه ، وأنهم أضعفوا في العدد ، وكان فرسه قد حفا واشتكى من مجيئه من العراق .

وكانوا يخاطرون بأنفسهم ويأتون بأعاجيب وأعمال خارقة للعادة ثقة بنصر الله واعتماداً على موعوده كما حصل للجيوش الإسلامية بقيادة سعد بن أبي وقاص فقد وقف أمام المدائن ولم يجد شيئاً من السفن وتعذر عليه تحصيل شيء منها بالكلية وقد زادت دجلة زيادة عظيمة وأسود ماؤها ورمت بالزبدة من كثرة الماء بها . .

فخطب سعد الناس على الشاطئ وقال : ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم فقالوا جميعاً : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل . . ، ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد فساروا فيها كأنما يسرون على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة ، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض . . فلما رأهم الفرس قالوا : (ديوانه - ديوانه) يقولون : (مجانين - مجانين) ثم قالوا : والله ما تقاتلون إنساً ، بل تقاتلون جنأ ، وجعل سعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه ، إن لم يكن في الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات . نعم كانوا يتخوفون من ذنوبهم ومن معاصي الله أكثر مما يتخوفون من عدوهم ، ومن كثرة عدده وضخامة عدده نجد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول في كتابه لقائده سعد بن أبي وقاص لما أرسله إلى فتح فارس :

أما بعد : فإنني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل من العدة على العدو ، وأقوى المكيذة على الحرب . . وأمرك ومن معك من الزجناد : أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجند أخوف عليهم من عدوهم . . وإنما ينصر المسلمون يعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا

ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وألا نتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاسحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله ، وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط عينا .. قرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمعاصي الله كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً .. واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم .. أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .. أ.هـ .

فتمسك المسلمون المجاهدون بما ذكر هذا الخليفة الراشد ، وكانوا كما وصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم ، فقال : (جئتكم منعند رجال دقاق يركبون خيولاً عتاقاً : أما الليل فرهبان ، وأما النهار ففرسان .. لو حدثت جليتك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر .. قال : فالتفت إلى أصحابه وقال : أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به) ..

وهذا عقبه بن نافع أراد أن يتخذ مدينة في إفريقية يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد ، فقصد موقع القيروان .. وكانت وحلة مشتبكة بها من أنواع الحيوان من السباع والحيات ، وغير ذلك ، فدعا الله ، وكان مستجاب الدعوة ، ثم نادى : (أيتها الحيات والسباع : إنا أصحاب رسول الله ﷺ ، ارحلوا عنا ، فإننا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ، فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب والحيات تحمل أولادها وتنتقل . ورآه قبيل كثير من البربر .. فأسلموا) وحينما طال على المسلمين الأمد وقست قلوبهم ونسوا وتناسوا ما لأجله بعثهم الله على كثرة من الناس وتوافر من بين أمم الأرض وهو قوله :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وصاروا يعيشون حياة لاهية دنيئة ، حياة من لا يعرف نبياً ولا يؤمن برسالة ووحى ، ولا يرجو حساباً ، ولا يخشى معاداً ، وأشبهوا الأمم الجاهلية التي خرجوا يقاتلوننا بالأمس عادوا فقلدوها في مدنيتهما واجتماعها وسياستها وأخلاقها ومناهج حياتها . . وفي كثير مما مقتها الله لأجله وخذلها وابتلى المسلمون بتأثير الحضارة الغربية والدعايات الشرقية أصبحت بلادهم مالاً سائباً لا مانع له . . وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس ، وطعمة لكل آكل . . وظهر معنى قول النبي ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ ؟ قال بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل . . ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن . . قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت» .

ويقول الرسول الكريم ﷺ : «إذا تبايعتم بالعينة ، واتبعتم أذناب البقر ، وتركتم الجهاد في سبيل الله ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم» .

فهم تركوا الجهاد ، وطلبوا المدد من الأعداء ، والحماية من الكفار ، والتكفف لديهم ، والالتجاء في مواقع الخطر إليهم . . فهانوا إذا على الله مع أسمائهم الإسلامية ورغم وجود الصالحين ، فيهم وظهر بعض الشعائر الدينية والواجبات الشرعية في بلادهم . .

يقول بعض المستشرقين : (لما رغب المسلمون عن تعاليم دينهم ، وجعلوا حكمه ، وأحكامه ، وعدلوا إلى القوانين الوضعية المتناقضة المستمدة من آراء الرجال ، فشا فيهم فساد الأخلاق ، فكثر الكذب ، والنفاق ، والتحاقد ، والتباغض . فترقت كلمتهم ، وجعلوا أحوالهم الحاضرة

والمستقبله ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ، ويشربون وينامون ، ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة) .

وهذا واقع مشاهد يحس به كل مؤمن ، ويلمسه كل يور ، في كل أمة تخلت عن الجهاد ، وانغمست في الترف ، وعبادة المادة وحب الدنيا . .

يحدثنا التاريخ : ماذا فعل بالمسلمين (أشقى الأمم المغول والتتار) ما يحزن القلب ويحرف الفؤاد ويكيي العين . .

يقول ابن الأثير : (لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارها لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلاً وأآخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين . . ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمني لم تلدني . . ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) . .

هذا الفصل يتضمن من ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام واليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين . .

ثم ذكر من وهن المسلمين وتسلب أعدائهم عليهم . . فقال : دخلت امرأة من التتر داراً ، وقتلت جماعة من أهلها ، وهم يظنونها رجلاً . . ودخل واحد منهم درباً فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم ولم يمد أحد يده إليه بسوء ووضعته الذلة على الناس . . فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً ، نعوذ بالله من الخذلان . .

وحكي أن أحدهم أخذ رجلاً ولم يجد ما يقتله به ، فقال له : ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح . . فوضع رأسه وبقي إلى أن أتى التتري بسيف وقتله . . قال : وأمثال ذلك كثير . .

فالواجب على أهل الإسلام خصوصاً العلماء منهم وولاة الأمور أن يتقوا

الله ، ويصلحوا ذات بينهم ، وأن ييئسوا الدعوة لهذا الدين ، وينشروا محاسنه لنشئهم ، ليرغبوهم فيه ، ويرشدوا الأمة لأحكامه وحكمه ، كما فعل أوائلهم الأماجد . . فإنهم جاهدوا في الله حق جهاده ، وقاموا بالدعوة إلى الله ، فبينوا للأمم محاسن الإسلام وسماحته . . وبذلك امتد سلطانهم ، واتسعت ممالكهم ، وأخضعوا من سواهم لتعاليمه . . ولكن ما لبث أبناؤهم أن حرفوا ، فأنحرفوا ، وتمزقوا بعدما اجتمعوا واشتبه الحق عليهم بالباطل ، فتفرقت بهم السبل ، وأصبحوا شيعاً متفرقين في آرائهم متباينين في مقاصدهم . . وكيف يحل لهم الرقي ؟ وأنى يتسنى لهم التقدم ، وهم يقلدون الأمم الكافرة . . يجرون وراءهم ، وينهجون نهجهم ، ويقلدونهم في الصغير والكبير والنقيير والقطمير . . يحكمون بين شعوبهم بقوانين وضعية ، ويصادمون الشريعة الإسلامية التي هي مصدر عزهم وفخرهم وفيها راحتهم وطمانينتهم . .

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

نسأل اله أن ينصر دينه ، ويعلي كلمته ، ويوفق جميع المسلمين إلى ما فيه رضاه . .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .